# الفصل الرابع

## نظرات فى آخر سورة الفاتحة

قال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

فى هذا الفصل :

- يستشهد بعلماء السَّلَف ، ويجلهم . ويدعو لهم بالخير ، ويشيد دائمًا بأهل السُّنَّة والجماعة .
- ويؤثر الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية ، والمأثور الفصيح من الشعر .
- ويرد على كبار العلماء - كالزمخشرى والسهيلى وغيرهما - فى توهمهم ، إذا ارتأى أن رأى غيرهم أصح وأسد ، ولا يفوته أن يترحم عليهم ، ويلتمس لهم العذر . وإذا وافق رأيه ما قد رأوه .. قرّ واستقر وتهلل لذلك .
- ويتتبع - فى بصيرة - نكت البلاغة فى ألمعية .. فى المسائل : البيانية ، والنحوية ، ويجليها .
- وحين يشرح لفظ « الهداية » ، يحيط بمعانيها ، فيرضى أشواق



obeikan.com

الروح، ويرد بالتالى أوهام العامة وانحرافهم فى فهم مقصودها ، وكثرة من مشاهير علمائنا اليوم يمتعون الجماهير المسلمة بما ترك وأبدع، فقد كان إهاباً ملئ علمًا، وموسوعة علمية .

يحدثنا فى هذا الفصل عن مسائل مهمة فى هذا الفصل منها :

- ما فائدة البدل ، فى قوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أنعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾؟ ولم أبهم فى « الذين » ؟
- ولم جاء ﴿المغضوب ﴾ بصيغة المجهول ؟ وهل لله نعمة على الكافر ؟
- ما إعراب ( غير ) ؟ وما معناها هنا ؟
- ومن هم الضالون؟ ولم عطف بـ ( لا ) ؟
- للهداية أنواع ومعان . ولم قال ( اهدنا ) ولم يقل ( اهدنى ) ؟
- ( الصراط ) ما هو ؟ وما حقيقته فى الآخرة ؟ وهل يرادفه الطريق ؟

لنستمع إليه .. يقول رحمه الله تعالى :

# نهجه فى دراسة هذه الآية وغيرها

* تجد فى دراسته المتأنية لهذه الآية الكريمة . . علم غزير ، ودقة فهم ، وبصر ناقد ، وحس ذكى ، وأدب عالم ، واستشهاد بارع ، وشفافية روح ، واختيار للأصوب ، وتفويض إلى الله ؛

- فهو يذكر الآراء ، ويختار أحسنها ، ويعلل سبب اختياره .

- ويستشهد بالشواهد الكثيرة ويبين الفرق .

- ويفرض سؤالاً ليرتب عليه الجواب ، تنشيطًا للذهن ومقارنة .

- ويستطرد لزيادة الفائدة ، ويستعين بفصيح المأثور فى الشعر والنثر .

- ويبين الاشتقاق فى أنواعه : الصغير والكبير والأكبر والكبّار ليجلى معنى الكلمة .

- ويذكر الأخطاء فى كتب من سبقه وينبه عليها فى أدب العلماء .

- ويعجب لبيان كبوة من كبار من العلماء ، ويتساءل أين غاب عنه ذهنه ؟

- ومن أدب العبد الصالح أن ينسب الجليل الجميل إلى الله . . أما غير ذلك فينسبه لنفسه .

- ويرجح أن الخضر كان نبيًا .

- والإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم .

- والإشادة والتعيين لأهل الصلاح والهدى .

- من الأفعال ما يتعدى بنفسه ، ويتعدى ( باللام ) ، وبحرف ( إلى ) مع اختلاف المعنى ؟

- وإذا لم يرض الله على قوم ، فهل ينعم عليهم ؟

- لفظ ( غير ) فى هذه الآية أبلغ من ( لا ) إذا حلت محلها ، لماذا ؟

- الأمانة فى الاقتباس ، والتعقيب عليه .

- ويتعقب النحل والملل الضالة ويرد شاردها .

- والهداية على أربعة أنواع ، فمن أى أنواع الهداية ( اهدنا ) فى هذه السورة ؟

- وشأن العلماء الورعين ، أن يختموا قولهم بـ ( والله أعلم ) .

- وحين يذكر الحقائق يبين سرّ الاختيار ، عن علم ، وفى تواضع .

- يعرض الآراء على شيخه ابن تيمية ، ويرجح ما يراه عن قناعه .

- ويختار من آراء العارفين ما يلبى أشواق الروح .

- أصول الهداية فى الإيمان العميق بالشهادتين .

* وقبل تفسير هاتين الآيتين الكريمتين يثير نقاطًا نحوية وصرفية وبلاغية ، وهى :

- ما فائدة البدل فى ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ ﴾ ، من المبدل منه ﴿ اهدنا الصراط ﴾ والمخاطب سبحانه لا يحتاج إلى البيان المستفاد من البدل ؟

- وما فائدة تعريف الصراط باللام ؟ ومم اشتق ؟ وما معناه ؟

- وما اشتقاق الصراط ؟ وما الفرق بينه وبين الطريق ؟

- ولماذا لم يختصر ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، فيقول : صراط المنعم عليهم ؟

- ولم جاء فعل ( اهدنا ) هنا متعديًا بنفسه ؟

- وهل لله نعم على الكافر ؟

- ولماذا لم يقل : غير المغضوب عليهم وغير الضالين ؟ وما فائدة العطف بلا ؟

- وما فائدة البدل فى ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾

- ولم فرق بين ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وبين الضالين ؟

- الهداية أنواع ، فمن أى الأنواع ؟ ( اهدنا الصراط ) ؟

- وما فائدة الضمير ( نا ) فى اهدنا ، ولم يقل ( اهدنى ) ؟

● تفسير آخر سورة الفاتحة :

* المسائل فى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.... إلى آخر الفاتحة . .

قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ فيها عشرون مسألة :

أحدها : ما فائدة البدل فى الدعاء والداعى مخاطب لمن لا يحتاج إلى البيان ، والبدل القصد منه بيان الاسم الأول ؟

الثانية : ما فائدة تعريف﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ باللام وهلا أخبر عنه بمجرد اللفظ دونها كما قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ؟ .

الثالثة : ما معنى الصراط ؟ ومن أى شىء اشتقاقه ؟ ولم جاء على وزن فعال ، ولم ذكر فى أكثر المواضع فى القرآن بهذا اللفظ ، وفى سورة الأحقاف ذكر بلفظ الطريق فقال : ﴿ يَهْدِى إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

والرابعة : ما الحكمة فى إضافته إلى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِم ﴾ بهذا اللفظ ، ولم يذكرهم بخصوصهم فيقول : صراط النبيين والصديقين ، فلم عدل إلى لفظ المبهم دون المفسر ؟

الخامسة : ما الحكمة فى التعبير عنهم بلفظ الذى مع صلتها دون أن يقال المنعم عليهم وهو أخصر ، كما قال : ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ؟ وما الفرق ؟

السادسة : لم فرق بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم ، فقال فى أهل النعمة : الذين أنعمت ، وفى أهل الغضب المغضوب بحذف الفاعل ؟

السابعة : لم قال : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فعدى الفعل بنفسه ولم يعده بإلى ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) ،

---

(١) الأحقاف : ٣٠ (٢) الشورى : ٥٢

وقال تعالى : ﴿ واجْتَبَيْنَاهُم وَهَدَيْنَاهُم إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

**الثامنة** : أن قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ يقتضى أن نعمته مختصة بالأولين دون المغضوب عليهم ولا الضالين . . وهذا حجة لمن ذهب إلى أنه لا نعمة له على كافر ، فهل هذا استدلال صحيح أم لا ؟ .

**التاسعة** : أن يقال : لم وصفهم لفظ غير ، وهلا قال تعالى :

لا المغضوب عليهم كما قال ولا الضالين . . وهذا كما تقول : مررت بزيد لا عمرو وبالعاقل لا الأحمق ؟ .

**العاشرة** : كيف جرت ( غير ) صفة على الموصول وهى لا تتعرف بالإضافة وليس المحل محل عطف بيان ، إذ بابه الإعلام ، ولا محل لذلك؛ إذ المقصود فى باب البدل هو الثانى والأول توطئة ، وفى باب الصفات المقصود الأول والثانى بيان ، وهذا شأن هذا الموضع ؛ فإن المقصود ذكر المنعم عليهم ووصفهم بمغايرتهم معنى الغضب والضلال ؟

**الحادية عشرة** : إذا ثبت ذلك فى البدل ، فالصراط المستقيم مقصود الإخبار عنه بذلك وليس فى نية الطرح ، فكيف جاء صراط الذين أنعمت عليهم بدلاً منه ، وما فائدة البدل هنا ؟ .

**الثانية عشرة** : إنه قد ثبت فى الحديث الذى رواه الترمذى والإمام أحمد وأبو حاتم ، تفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود ، والنصارى بأنهم الضالون، فما وجه هذا التقسيم والاختصاص ، وكل من الطائفتين صال مغضوب عليه ؟ .

**الثالثة عشرة** : لم قدم المغضوب عليهم فى اللفظ على الضالين ؟ .

---

(١) الأنعام : ٨٧

**الرابعة عشرة** : لم أتى فى أهل الغضب بصيغة مفعول المأخوذة من فعل ؟ ولم يأت فى أهل الضلال بذلك ، فيقال المضلين ، بل أتى فيهم بصيغة فاعل المأخوذة من فعل ؟ .

**الخامسة عشرة** : ما فائدة العطف بلا هنا ، ولو قيل المغضوب عليهم والضالين لم يختل الكلام ، وكان أوجزه ؟

**السادسة عشرة** : إذ قد عطف بها فيأتى العطف بها مع **الواو للمنفى** ، نحو : ما قام زيد ولا عمرو ، وكقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ (١) . وأما بدون الواو فبابها الإيجاب ، نحو : مررت بزيد لا عمرو فهذه **ست عشرة مسئلة فى ذلك؟**

**السابعة عشرة** : هل الهداية هنا هداية التعريف والبيان ؟ أو هداية التوفيق والإلهام ؟ .

**الثامنة عشرة** : كل مؤمن مأمور بهذا الدعاء أمرًا لازمًا لا يقوم غيره مقامه ، ولا بد منه ، وهذا إنما نسأله فى الصلاة بعد هدايته ، فما وجه السؤال لأمر حاصل وكيف يطلب تحصيل الحاصل ؟

**التاسعة عشرة** : ما فائدة الإتيان بضمير الجمع فى اهدنا ، والداعى يسئل ربه لنفسه فى الصلاة وخارجها ، ولا يليق به ضمير الجمع ، ولهذا يقول : «رب اغفر لى وارحمنى وتب على » .

**العشرون** : ما حقيقة الصراط المستقيم الذى يتصوره العبد وقت سؤاله ؟ فهذه أربع مسائل حقها أن تقدم أولاً ولكن جر الكلام إليها بعد ترتيب المسائل الستة عشر .

---

(١) التوبة : ٩٢

● **الأجوبة :**

والجواب بعون الله وتعليمه ، فإنه لا علم لأحد من عباده إلا ما علمه ، ولا قوة له إلا بإعانته :

**أولاً : فائدة البدل من الدعاء :**

أما المسألة **الأولى** : وهى فائدة البدل من الدعاء : أن الآية وردت فى معرض التعليم للعباد والدعاء ، وحق الداعى أن يستشعر عند دعائها ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به ، إذ الدعاء مخ العبادة ، والمخ لا يكون إلا فى عظم والعظم لا يكون إلا فى لحم ودم ، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجًا بالثناء ، فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية والرغبة فيها مشوبًا بالخير تصريحًا من الداعى بمعتقده ، وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه : فكأنه متوسل إليه بإيمانه واعتقده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم . وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته وحباهم بكرامته ؛ فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم . . والمخالفون للحق يزعمون أنهم على الصراط المستقيم أيضًا ، والداعى يجب عليهم اعتقاد خلافهم وإظهار الحق الذى فى نفسه ، فلذلك أبدل وبين لهم ليمرن اللسان على ما اعتقده الجنان .

ففى ضمن هذا الدعاء المهم الإخبار بفائدتين جليلتين : **إحداهما** : فائدة الخبر . **والفائدة الثانية** : فائدة لازم الخبر .

فأما فائدة الخبر : فهى الإخبار عنه بالاستقامة ، وأنه الصراط المستقيم الذى نصبه لأهل نعمته وكرامته .

**وأما فائدة لازم الخبر** : فإقرار الداعى بذلك وتصديقه وتوسله بهذا الإقرار إلى ربه .

* **فوائد فى الدعاء هنا** : فهذه أربع فوائد : **الدعاء بالهداية إليه ، والخبر عنه**

بذلك . والإقرار والتصديق لشأنه . والتوسل إلى المدعو إليه بهذا التصديق ، وفيه فائدة خامسة ، وهى : أن الداعى إنما أمر بذلك لحاجته إليه وأن سعادته وفلاحه لا تتم إلا به ، فهو مأمور بتدبر ما يطلب وتصور معناه ؛ فذكر له من أوصافه ما إذا تصور فى خلده وقام بقلبه كان أشد طلبًا له ، وأعظم رغبة فيه ، وأحرص على دوام الطلب والسؤال له ، فتأمل هذه النكت البديعة .

❊ ❊

**الثانية : لماذا عرف الصراط باللام هنا :**

وأما المسألة الثانية وهى : تعريف الصراط باللام هنا .

فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره : ألا ترى أن قولك : جالس فقيهًا أو عالمًا ، ليس كقولك : جالس الفقيه أو العالم ، ولا قولك : أكلت طيبًا ، كقولك : الطيب ألا ترى إلى قوله ﷺ : « أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق » ، ثم قال : « وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ ، والْجَنَّةُ حق والنار حق » ، فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة ، وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه ؛ فإذا عرفت هذا فلو قال : اهدنا صراطًا مستقيمًا لكان الداعى إنما يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق ، وليس المراد ذلك بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذى نصبه الله تعالى لأهل نعمته ، وجعله طريقًا إلى رضوانه وجنته ، وهو دينه الذى لا دين له سواه ، فالمطلوب أمر معين فى الخارج والذهن ، لا شىء مطلق منكر ، واللام هنا للعهد العلمى الذهنى وهو : أنه طلب الهداية إلى سرٍّ معهود قد قام فى القلوب معرفته والتصديق به ، وتميزه عن سائر طرق الضلال : فلم يكن بد من التعريف .

❊ ❊

(فإن قيل ) : لم جاء منكرًا فى قوله لنبيه ﷺ : ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » [1] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [2] ،

---

(١) الفتح : ٢ (٢) الشورى : ٥٢

وقوله تعالى : ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

فالجواب عن هذه المواضع بجواب واحد ، وهو : أنها ليست فى مقام الدعاء والطلب وإنما هى فى مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم وهداية رسوله إليه ، ولم يكن للمخاطبين عهد به ، ولم يكن معروفًا لهم فلم يجئ معرفًا بلام العهد المشيرة إلى معروف فى ذهن المخاطب قائم فى خلده ، ولا تقدمه فى اللفظ معهود تكون اللام معروفة إليه ، وإنما تأتى لام العهد فى أحد هذين الموضعين أعنى أن يكون لها معهود ذهنى ، أو ذكر لفظى وإذ لا واحد منهما فى هذه المواضع فالتنكير هو الأصل ، وهذا بخلاف قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطًا مستقيمًا هدى إليه أنبياءه ورسله ، وكان المخاطب سبحانه المسؤول من هدايته عالمًا به دخلت اللام عليه فقال : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

* *

وقال السهيلى : إن قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (٣) نزلت فى صلح الحديبية ، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح ورأوا أن الرأى خلافه ، وكان الله تعالى - عما يقولون ورسوله ﷺ أعلم - فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية ، فلم يرد صراطًا مستقيمًا فى الدين ، وإنما أراد صراطًا فى الرأى والحرب والمكيدة .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) : أى تهدى من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم . ولو قال فى هذا الموطن : إلى الصراط المستقيم ؛ لجعل للكفر وللضلال حظًا من الاستقامة ؛ إذ الألف واللام تنبئ أن ما دخلت عليه من الأسماء الموصلة أحق بذلك المعنى مما تلاه

---

(١) الأنعام : ٨٧ (٢) الأنعام : ١٦١
(٣) الفتح : ٢ (٤) الشورى : ٥٢

فى الذكر ، أو ما قرب به فى الوهم ، ولا يكون أحق به إلا والآخر فيه طرف منه .

* *

رده لرأى السهيلى :

وغير خاف ما فى هذين الجوابين من الضعف والوهن :

أما قوله إن المراد بقوله : ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ فى الحرب والمكيدة ، فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذى امتن الله به على رسوله ، وأخبر النبى ﷺ أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها ، ومتى سمى الله الحرب والمكيدة : صراطًا مستقيمًا ؟ وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك ؟ بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذى أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه فى قوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) ، ونصب دينًا هنا على البدل من الجار والمجرور : أى هدانى دينًا قيمًا . أفتراه يمكنه ههنا أن يقول : إنه الحرب والمكيدة ؟ فهذا جواب فاسد جدًا .

( وتأمل ) ما جمع الله سبحانه لرسوله فى آية الفتح من أنواع العطايا وذلك خمسة أشياء أحدها : الفتح المبين ، والثانى : مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، والثالث : هدايته الصراط المستقيم ، والرابع : إتمام نعمته عليه ، والخامس : أعطاه النصر العزيز ، وجمع - سبحانه - له بين الهدى والنصر ؛ لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح ؛ فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته ، فهو العلم النافع والعمل الصالح والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه ، فالحجة والبيان والسيف والسنان فهو النصر بالحجة واليد ، وقهر قلوب المخالفين له بالحجة وقهر أبدانهم باليد .

---

(١) الأنعام : ١٦١

وهو - سبحانه - كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين : إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله ، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه ﴾ فى موضعين فى سورة براءة (١) وفى سورة الصف (١) . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ والميزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ ، فهذا الهدى ثم قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢) فهذا النصر . فذكر الكتاب الهادى ، والحديد الناصر .

وقال تعالى : ﴿ الٓمٓ * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الفُرْقَانَ ﴾ (٣) ، فذكر إنزال الكتاب الهادى ، والفرقان وهو النصر الذى يفرق بين الحق ـ الباطل .

وسر اقتران النصر بالهدى : أن كلا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل ، ولهذا سمى تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانًا ، كما قال تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ ﴾ (٤) فذكر الأصلين ـ أنزله على رسوله يوم الفرقان وهو يوم بدر ، وهو اليوم الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه ، وإذلال أعدائه وخزيهم .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُون الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) : فالفرقان نصره له على فرعون وقومه ، والضياء والذكر التوراة هذا هو معنى الآية .

ولم يصب من قال إن الواوا زائدة ، وأن ضياء منصوب على الحال كما

---

(١) التوبة : ٣٣ ، الصف : ٩ (٢) الحديد : ٢٥ (٣) آل عمران : ١ - ٤
(٤) الأنفال : ٤١ (٥) الأنبياء : ٤٨

بينا فساده فى ( الأمالى المكية ) ، فبين أن آية الفتح تضمنت لأصلين الهدى والنصر وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة .

* *

وأما جوابه الثانى عن قوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بأنه لو عرّف لجعل للكفر والضلال حظًا من الاستقامة فما أدرى من أين جاء له هذا الفهم ، مع ذهنه الثاقب ، وفهمه البديع رحمه الله تعالى وما هى إلا كبوة جواد ، ونبوة صارم : أفترى قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ يفهم منه أن لغيره حظًا من الاستقامة ، وما ثم غيره إلا طرق الضلال ، وإنما الصراط المستقيم واحد ، وهو : ما هدى الله إليه أنبياءه ورسله أجمعين : وهو الصراط المستقيم : صراط الذين أنعمت عليهم ، وكذلك تعريفه فى سورة الفاتحة هل يقال : إنه يفهم منه أن لغيره حظًا من الاستقامة ؟ بل يقال تعريفه ينبئ أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة : فإن التعريف فى قوة الحصر ، فكأنه قيل : الذى لا صراط مستقيم سواه ، وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة ، فتأمله هنا وفى نظائره .

* *

● **الثالثة : اشتقاق الصراط :**

وأما المسألة الثالثة وهى : اشتقاق الصراط ، فالمشهور أنه من صرطت الشىء أصرطه إذا بلعته بلعًا سهلاً ، فسمى الطريق صراطًا ؛ لأنه يسترط المارة فيه .

والصراط ما جمع خمسة أوصاف :

أن يكون طريقًا مستقيمًا سهلاً مسلوكًا واسعًا موصلا إلى المقصود فلا تسمى العرب الطريق المعوج صراطًا ، ولا الصعب المشق ، ولا المسدود غير

الموصل، ومن تأمل موارد الصراط فى لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك ، قال جرير :

أمير المؤمنين على صراط  إذا اعوج الموارد مستقيم

وبنوا الصراط على زنة فعال ؛ لأنه مشتمل على سالكه اشتمال الحلق على الشيء المسروط ، وهذا الوزن كثير فى المشتملات على الأشياء : كاللحاف والخمار والرداء والغطاء والفراش والكتاب إلى سائر الباب يأتى لثلاثة معان :

أحدها : المصدر ، كالقتال والضراب .

والثانى : المفعول نحو الكتاب والبناء والغراس .

والثالث : أنه يقصد به قصد لآلة التى يحصل به الفعل ويقع بها : كالخمار والغطاء والسداد لما يخمر به ويغطى ويسد به فهذا آلة محضة ، والمفعول : هو الشيء المخمر والمغطى والمسدود ومن هذا القسم الثالث : إله بمعنى مألوه .

وأما ذكره له بلفظ الطريق فى سورة الأحقاف خاصة ، فهذا حكاية الله تعالى لكلام مؤمنى الجن ، أنهم قالوا لقومهم : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

وتعبيرهم عنه ههنا بالطريق فيه نكتة بديعة وهى : أنهم قدموا قبله ذكر موسى ، وإن الكتاب الذى سمعوه مصدقًا لما بين يديه من كتاب موسى وغيره، فكان فيه كالنبأ عن رسول الله ﷺ فى قوله لقومه : ﴿ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ (٢) : أى لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم ، وإنما بعثت مصدقًا لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان ، فقال مؤمنو الجن : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) .

---

(١) الأحقاف : ٣٠  (٢) الأحقاف : ٩  (٣) الأحقاف : ٣٠

أى إلى سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله ، وأنه ليس ببدع ، كما قال فى أول السورة نفسها ، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق لأنه : فعيل بمعنى مفعول ، أى مطروق مشت عليه الرسل والأنبياء قبل ؛ فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم أن يؤمن به ويصدقه ، فذكر الطريق ههنا إذًا أولى ؛ لأنه أدخل فى باب الدعوة والتنبيه على تعيين أتباعه ، والله أعلم . ثم رأيت هذا المعنى بعينه قد ذكره السهيلى فوافق فيه الخاطر الخاطر .

* *

● **الرابعة : إضافة الصراط إلى الموصول المبهم :**

وأما المسألة الرابعة وهى : إضافته إلى الموصول المبهم ، دون أن يقول صراط النبيين والمرسلين ففيه ثلاث فوائد :

( إحداها ) : إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا : فإن استحقاق كونهم من المنعم عليهم هو بهدايتهم إلى هذا الصراط فبه صاروا من أهل النعمة،وهذا كما يعلق الحكم بالصلة دون الاسم الجامد لما فيه من الإنعام باستحقاق ما علق عليها من الحكم بها . وهذا كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (١) ، ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ (٣) ، وهذا الباب مطرد فالإتيان بالاسم موصولاً على هذا المعنى : من ذكر الاسم الخاص .

( الفائدة الثانية ) : فيه إشارة إلى أن نفى التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن من هدى إلى هذا الصراط : فقد أنعم عليه ، فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه .

والفرق بين هذا الوجه والذى قبله : أن الأول يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل الهداية إليه.والثانى يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه .

---

(١) البقرة : ٢٧٤ (٢) الزمر : ٣٣ (٣) الأحقاف : ١٣

( الفائدة الثالثة ) : أن الآية عامة فى جميع طبقات المنعم عليهم ، ولو أتى باسم خاص لكان لم يكن فيه سؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم ، فكان فى الإتيان بالاسم العام من الفائدة أن المسؤل الهدى إلى جميع تفاصيل الطريق التى سلكها كل من أنعم عليهم : من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهذا أجل مطلوب ، وأعظم مسؤل ولو عرف الداعى قدر هذا السؤال لجعله هجيراه ، وقرنه بأنفاسه ؛ فإنه لم يدع شيئًا من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه ، ولما كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضًا متكررًا فى اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه؛ومن ثم يعلم تعين الفاتحة فى الصلاة وأنها ليس منها عوض يقوم مقامها .

* *

● **الخامسة والسادسة : سر التعبير بالفعل فى أنعمت :**

وأما المسألة الخامسة ، وهى : أنه قال : ﴿ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ولم يقل المنعم عليهم ، كما قال : المغضوب عليهم ، فجوابها وجواب المسألة السادسة واحد .

**وفيه فوائد عديدة :**

**أحدها** : أن هذا جاء على الطريقة المعهودة فى القرآن ، وهى : أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى ، فيذكر فاعلها منسوبة إليه ، ولا يبنى الفعل معها للمفعول ، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبنى الفعل معها للمفعول ؛ أدبًا فى الخطاب وإضافته إلى الله أشرف قسمى أفعاله فمنه هذه الآية : فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ، ولم يحذف فاعلها ، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل ، وبنى الفعل للمفعول ، فقال : المغضوب عليهم . وقال فى الإحسان الذين أنعمت عليهم .

ونظيره قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى

فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (١) ، فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقى إلى الله تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض ، قال : ﴿ وَإِذَا مَرِضتُ ﴾ ولم يقل : أمرضنى ، وقال : ﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٢) .

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (٣) ، فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب ، وحذفوا فاعل إرادة الشر ، وبنوا الفعل للمفعول .

ومنه قول الخضر عليه الصلاة والسلام فى السفينة : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ فأضاف العيبَ إلى نفسه . . وقال فى الغلامين : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ (٤) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (٥) فحذف الفاعل وبناه للمفعول .

وقال تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ (٦) ، لأن فى ذكر الرفث ما يحسن منه أن لا يقترن بالتصريح بالفاعل .

ومنه : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ (٧) ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ : أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (٨) إلى آخرها .

ومنه وهو ألطف من هذا وأدق معنى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ (٩) إلى آخرها . ثم قال تعالى : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾ (١٠) ، وتأمل قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا

---

(١) الشعراء : ٧٨ - ٨٠ (٢) الشعراء : ٨٠ (٣) الجن : ١٠
(٤) الكهف : ٨٢ (٥) البقرة ١٨٧ (٦) البقرة : ٢٧٥
(٧) المائدة : ٣ (٨) الأنعام : ١٥١ (٩ ، ١٠) النساء : ٢٣ ، ٢٤

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ (١) ، كيف صرح بفاعل التحريم فى هذا الموضع ، وقال تعالى فى حق المؤمنين ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾ (٢) .

( الفائدة الثانية ) : أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها ، وأصل الشكر ذكر النعم والعمل بطاعته ، وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالى الذى هو أساس الشكر وكذ فى قوله تعالى : ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ من ذكره وإضافته النعمة إليه . . ما لس فى ذكر المنعم عليهم لو قاله : فضمن هذا اللفظ الأصلين وهما : الشكر والذكر المذكوران فى قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ (٣) .

( الفائدة الثالثة ) : أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده ، وهو المنعم بالهداية دون أن يشركه أحد فى نعمته ، فاقتضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف الإفراد فيقال : أنعمت عليهم ، أى أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعم .

وأما الغضب فإن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط ، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم ، فموافقته تعالى تقتضى أن يغضب على من غضب عليه،ويرضى عمن رضى عنه؛فيغضب لغضبه ويرضى لرضاه ، وهذا حقيقة العبودية ، واليهود قد غضب الله عليهم ، فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم ، فحذف فاعل الغضب ، وقال تعالى : ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم على من غضب الله عليه بخلاف الإنعام فإنه لله وحده ، فتأمل هذه النكتة البديعة .

( الفائدة الرابعة ) : أن المغضوب عليهم فى مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم ، والإشارة إلى نفس الصفة التى لهم والاقتصار عليها .

---

(١) النساء : ١٦٠ (٢) المائدة : ٣ (٣) البقرة : ١٥٢

وأما أهل النعمة فهم فى مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشارة بذكرهم .

وإذا ثبت هذا فالألف واللام فى ﴿ المَغْضُوبِ ﴾ ، وإن كانتا بمعنى الذين . . فليست مثل الذين فى التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسمى ، فإن قولك : الذين فعلوا معناه القوم الذين فعلوا ، وقولك الضاربون والمضروبون ليس فيه ما فى قولك : الذين ضربوا أو ضربوا فتأمل ذلك . . فالذين أنعمت عليهم إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم ، بخلاف المغضوب عليهم فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم والمعول عليه من الأجوبة ما تقدم .

* *

● **السابعة : تعدية فعل اهدنا بنفسه :**

**وأما المسألة السابعة** ، وهى : تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف إلى ، فجوابها :

أن فعل الهداية يتعدى بنفسه تارة ، وبحرف ( إلى ) تارة ، وبـ( اللام ) ، تارة ، والثلاثة فى القرآن .

فمن المعدى بنفسه هذه الآية فى قوله تعالى ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (١) ، ومن المعدى بإلى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) ، ومن المعدى باللام قوله سبحانه : قول أهل الجنة : ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (٥) .

---

(١) الفتح : ٢ (٢) الشورى : ٥٢ (٣) الأنعام : ١٦١

(٤) الأعراف : ٤٣ (٥) الإسراء : ٩

والفروق لهذه المواضع تدق جداً عن أفهام العلماء ، ولكن نذكر قاعدة تشير إلى الفرق وهى :

أن الفعل المعدّى بالحروف المتعددة لا بد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر ، وهذا بحسب اختلاف معنى الحروف : فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق ، نحو : رغبت عنه ورغبت فيه ، وعدلت إليه وعدلت عنه ، وملت إليه وعنه ، وسعيت إليه ، وبه . وإن تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق نحو : قصدت إليه وقصدت له ، وهديته إلى كذا وهديته لكذا .

وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر .

وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة ، بل يحعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره ، فينظرون إلى الحرف وما يستدعى من الأفعال فيُشْرِبُون الفعل المتعدى به معناه ، هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه رحمه الله تعالى ، وطريقة حذّاق أصحابه يضمنون الفعل معنى الفعل لا يقيمون الحرف مقام الحرف ، وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار ، وتستدعى فطنة ولطافة فى الذهن ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِها عِبَادُ اللهِ ﴾ (١) ، فإنهم يضمنون بشرب معنى يروى فيعدونه بالباء التى تطلبها ؛ فيكون فى ذلك دليل على الفعلين : أحدهما بالتصريح به والثانى بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذى يقتضيه مع غاية الاختصار ، وهذا من بديع اللغة ومحاسنها ، وكمالها . ومنه قول الشاعر فى السحاب :

* شربن بماء البحر حتى روين ثم ترفعن وصعدن *

وهذا أحسن من أن يقال يشرب منها ؛ فإنه لا دلالة فيه على الرِّىِّ ، وأن يقال يروى بها ؛ لأنه لا يدل على الشرب بصريحه بل باللزوم : فإذا قال : يشرب بها دل على الشرب بصريحه ، وعلى الرى بخلاف الباء فتأمله .

---

(١) الإنسان : ٤

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ ﴾ (١) ، وفعل الإرادة ، لا يتعدى بالباء ولكن ضمن معنى يهم فيه بكذا ، وهو أبلغ من الإرادة فكان فى ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة ، وهذا باب واسع لو تتبعناه لطال الكلام فيه ، ويكفى المثالان المذكوران .

فإذا عرفت هذا ففعل الهداية متى عدى بـ( إلى ) تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتى بحرف الغاية .

ومتى عدى بـ « اللام » تضمن التخصيص بالشىء المطلوب فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين : فإذا قلت هديته لكذا فهم معنى ذكرته له وجعلته له وهيأته ونحو هذا .

وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله ، وهو : التعريف والبيان والإلهام . فالقائل إذًا قال : ﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو طالب من الله أن يعرفه إياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه ؛ فيجعل فى قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه ، فجرد الفعل من الحرف وأتى به مجردًا معدى بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها ، ولو عدى بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها ، والله أعلم .

* *

● الثامنة : تخصيص أهل السعادة بالهداية :

وأما المسألة الثامنة ، وهى : أنه خص أهل السعادة بالهداية دون غيرهم ، فهذه مسألة اختلف الناس فيها ، وطال الحجاج من الطرفين ، وهى أنه :

هل لله على الكافر نعمة ، أم لا ؟ . فمن ناف محتج بهذه ، وبقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٢) فخص

---

(١) الحج : ٢٥ (٢) النساء : ٦٩

هؤلاء بالإنعام ، فدل على أن غيرهم غير منعم عليه ، ولقوله لعباده المؤمنين ﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ (١) . وبأن الإنعام ينافى الانتقام والعقوبة ، فأى نعمة على من خلق للعذاب الأبدى ؟

ومن مثبت محتج بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهَ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه لليهود : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (٣) وهذا خطاب لهم فى حال كفرهم ، وبقوله سبحانه فى سورة النحل ، التى عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُم تُسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الكَافِرُونَ ﴾ (٤) ، وهذا نص صريح لا يحتمل صرفًا .

واحتجوا بأن البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، كلهم يعيش فى نعمة الله وكل أحد مُقِرٌّ لله تعالى بأنه إنما يعيش فى نعمته ، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بنى آدم إلا من كابر وجحد حق الله تعالى ، وكفر بنعمته .

وفصل الخطاب فى المسألة : أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم ، ومطلق النعمة عام للخليقة كلهم : برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم .

فالنعمة المطلقة التامة : هى المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم ، فهذه غير مشتركة ومطلق النعمة عام مشترك .

فإذا أراد النافى سلب النعمة المطلقة أصاب ، وإن أراد سلب مطلق النعمة أخطأ .

وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب .

---

(١) البقرة : ١٥٠ (٢) إبراهيم : ٣٤

(٣) البقرة : ١٢٢ (٤) النحل : ٨١ - ٨٣

وبهذا تتفق الأدلة ويزول النزاع ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب والله الموفق للصواب .

وأما قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) ، فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم ؛ ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة .

بأن أنجاهم من آل فرعون ، وأن فرق بهم البحر ، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ، ثم تاب عليهم وعفا عنهم ، وبأن ظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى . . إلى غير ذلك من نعمه التى يعددها عليهم ، وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم فأمرهم أن يذكروها ؛ ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته ، وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعى منهم شكرًا ، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولى وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه ؟ وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم فى حال كفرهم ، والله أعلم .

* *

● **التاسعة : التعبير بـ « غير » ، وليس بـ « لا » :**

وأما المسألة التاسعة ، وهى أنه قال : « غير » المغضوب ، ولم يقل : « لا » المغضوب عليهم ، فيقال :

لا ريب أن « لا » يعطف بها بعد الإيجاب ، كما تقول : جاءنى زيد لا عمرو ، وجاءنى العالم لا الجاهل .

وأما « غير » فهى تابع لما قبلها ، وهى صفة ليس إلا كما سيأتى . وإخراج

---

(١) البقرة : ١٢٢

الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخراجه مخرج العطف ؛ وهذا إنما يعلم إذا عرف فرق ما بين العطف فى هذا الموضع والوصف فنقول :

* لو أخرج الكلام مخرج العطف ، وقيل : صراط الذين أنعمت عليهم « لا » المغضوب عليهم . . لم يكن فى العطف بها أكثر من نفى إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم ، كما هو مقتضى العطف ، فإنك إذا قلت : جاءنى العالم لا الجاهل . . لم يكن فى العطف أكثر من نفى المجىء عن الجاهل وإثباته للعالم .

وأما الإتيان بلفظ « غير » فهى صفة لما قبلها ، فأفاد الكلام معها وصفهم بشيئين : أحدهما : أنهم منعم عليهم . والثانى : أنهم غير مغضوب عليهم ؛ فأفاد ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم ؛ فإنه يتضمن صفتين : صفة ثبوتية وهى : كونهم منعمًا عليهم ، وصفة سلبية ، وهى : كونهم غير مستحقين لوصف الغضب ، وأنهم مغايرون لأهله ؛ ولهذا لما أريد بها هذا المعنى ، جُرَّتْ صفة على المنعَم عليهم ولم تكن صفة منصوبة على الاستثناء ؛ لأنها يزول منها معنى الوصفية المقصود .

وفيها فائدة أخرى ، وهى : أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى دعوا . . . أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام ، فكأنه قيل لهم : المنعَمُ عليهم غيركم لا أنتم ، وقيل للمسلمين : المغضوبُ عليهم غيركم لا أنتم . فالإتيان بلفظة « غير » فى هذا السياق أحسن وأدل على إثبات المغايرة المطلوبة فتأمله .

وتأمل كيف قال : « المغضوب عليهم ولا الضالين » ، ولم يقل اليهود والنصارى ، مع أنهم هم الموصوفون بذلك ، تجريدًا لوصفهم بالغضب والضلال الذى به غايروا المنعم عليهم ولم يكونوا منهم بسبيل ؛ لأن الانعام المطلق ينافى الغضب والضلال ، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال .

فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد .

* *

● العاشرة : الكلام على لفظ « غير » وإضافتها :

وأما المسألة العاشرة ، وهى : جريان « غير » صفة على المعرفة ، وهى لا تتعرف بالإضافة ، ففيه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أن « غير » هنا بدل لا صفة ، وبدل النكرة من لمعرفة جائز ، وهذا فاسد من وجوه ثلاثة :

أحدها : أن باب البدل المقصود فيه الثانى ، والأول توطئة له ومهاد أمامه ، وهو المقصود بالذكر ، فقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (١) ، المقصود هو أهل الاستطاعة خاصة ، وذكر الناس قبلهم توطئة ، وقولك : أعجبنى زيدٌ علْمُهُ إنما وقع الإعجاب على علمه ، وذكرت صاحبه توطئة لذكره . وكذا قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ (٢) المقصود إنما هو السؤال عن القتال فى الشهر الحرام ، لا عن نفس الشهر ، وهذا ظاهر جدًا فى بدل البعض وبدل الاشتمال ، ويراعى فى بدل الكل من الكل ولهذا سمى بدلاً إيذانًا بأنه المقصود ؛ فقوله تعالى : ﴿ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ (٣) : القصود لنسفعن بالناصية الكاذبة الخاطئة . وذكر المبدل منه توطئة لها .

وإذا عرف هذا فالمقصود هنا ذكر المنعم عليهم ، وإضافة الصراط إليهم ، ومن تمام هذا المقصود وتكميله الإخبارِ بمغايرتهم للمغضوب عليهم ؛ فجاء ذكر غير المغضوب مكملاً لهذا المعنى ومتممًا ومحققًا ؛ لأن أصحاب الصراط المسئول هدايته هم أهل النعمة فكونهم غير مغضوب عليهم وصف محقق ، وفائدته فائدة الوصف المبين للموصوف المكمل له وهذا واضح .

الوجه الثانى : أن البدل يجرى مجرى توكيد المبدل وتكريره وتثنيته ، ولهذا كان فى تقدير تكرار العامل وهو المقصود بالذكر كما تقدم : فهو الأول

---

(١) آل عمران ٩٧ (٢) البقرة ١٨٩ (٣) العلق ١٥ ، ١٦

بعينه ذاتًا ووصفًا ، وإنما ذكر بوصف آخر مقصود بالذكر كقوله سبحانه : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ولهذا يحسن الاقتصار عليه دون الأول ، ولا يكون مخلاً بالكلام : ألا ترى أنك لو قلت فى غير القرآن : لله حج البيت على من استطاع إليه السبيل لكان كاملاً مستقيمًا لا خلل فيه . ولو قلت فى دعائك ، رب اهدنى صراط من أنعمت عليه من عبادك لكان مستقيمًا ؟ وإذا كان كذلك فلو قدر الاقتصر على ( غير ) وما فى حيزها لاختل الكلام وذهب معظم المقصود منه ؛ إذ المقصود إضافة الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم لا إضافته إلى غير المغضوب عليهم ؛ بل أتى بلفظ : ( غير ) زيادة فى وصفهم والثناء عليهم فتأمله .

**الوجه الثالث** : أن غير لا يعقل ورودها بدلاً ، وإنما ترد استثناء أو صفة أو حالاً ، وسر ذلك : أنها لم توضع مستقلة بنفسها بل لا تكون إلا تابعة لغيرها ، ولهذا قلما يقال : جاءنى غير زيد ومررت بغير عمرو . والبدل لا بد أن يكون مستقلاً بنفسه كما تبين أنه المقصود .

* *

**ونكتةالفرق** : أنك فى **باب البدل** قاصد إلى الثانى متوجه إليه ، قد جعلت الأول سلمًا ومرقاة إليه ، فهو موضع قصدك ومحط إرادتك . . وفى باب **الصفة** بخلاف : ذلك إنما أنت قاصد الموصوف موضح له بصفته ، فاجعل هذه النكتة معيارًا على باب البدل والوصف ، ثم زن بها « غير المغضوب عليهم » هل يصح أن يكون بدلاً أو وصفًا ؟

**الجواب الثانى** : أن غير ههنا صح جريانه صفة على المعرفة ؛ لأنها موصولة والموصول مبهم غير معين ، ففيه رائحة من النكرة لإبهامه : فإنه غير دال على معين ، فصلح وصفه ( بغير ) لقربه من النكرة ، وهذا جواب صاحب الكشاف ، قال : ( فإن قلت ) : كيف صح أن يقع غير صفة للمعرفة ، وهو لا يتعرف ؟

وإن أضيف إلى المعارف قلت : الذين أنعمت عليهم لا توقيت فيه فهو كقول الشاعر :

ولقـــد أمرّ على اللئيم يسبنى فمضيتُ ثَمَّتَ قلت لا يعنينى

ومعنى قوله لا توقيت فيه : أى لا تعيين لواحد من واحد كما تعين المعرفة ، بل هو مطلق فى الجنس فجرى مجرى النكرة ، واستشهاده بالبيت معناه أن الفعل نكرة وهو يسبنى ، وقد أوقعه صفة للئيم المعرفة باللام ؛ لكونه غير معين فهو فى قوة النكرة فجاز أن ينعت بالنكرة ، وكأنه قال : على لئيم يسبنى .

**وهذا استدلال ضعيف** : فإن قوله يسبنى حال منه لا وصف ، والعامل فيه فعل المرور ، المعنى أمر على اللئيم سابًا لى أى : أمر عليه فى هذه الحال فاتجاوزه ، ولا أحتفل بسبه .

**الجواب الثالث** ، وهو الصحيح : أن ( غير ) ههنا قد تعرفت بالإضافة ، فإن المانع لها من تعريفها شدة إبهامها أو عمومها فى كل مغاير للمذكور ، فلا يحصل بها تعيين ؛ ولهذا تجرى صفة على النكرة فتقول : رجل غيرك يقول كذا ويفعل كذا ، فتجرى صفة للنكرة مع إضافتها إلى المعرفة ومعلوم أن هذا الإبهام يزول لوقوعها بين متضادين يذكر أحدهما ، ثم تضيفها إلى الثانى فيتعين بالإضافة ، ويزول الإبهام الذى يمنع تعريفها بالإضافة كما قال الشاعر :

نحن بنو عمرو الهجان الأزهر النسب المعروف غير المنكر

أفلا تراه أجرى غير المنكر صفة على النسب كما أجرى عليه المعروف ، لأنهما صفتان معينتان فلا إبهام فى ( غير ) لأن مقابلها المعروف وهو معرفة وضده المنكر متميز متعين كتعين المعروف أعنى تعين الجنس ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فالمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم ؛ فإذا كان الأول معرفة كانت (غير) معرفة لإضافتها إلى محصل متميز غير مبهم فاكتسبت منه التعريف .

* *

وينبغى أن تتفطن ههنا لنكتة لطيفة فى ( غير ) تكشف لك حقيقة أمرها : فأين تكون معرفة ، وأين تكون نكرة ؟ وهى :

أن(غيرا)هى نفس ما تكون تابعة له وضد ما هى مضافة إليه : فهى واقعة على متبوعها وقوع الاسم المرادف على مرادفه ؛ فإن المعروف هو تفسير غير المنكر ، والمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم ، هذا حقيقة اللفظة ، فإذا كان متبوعها نكرة لم تكن إلا نكرة ، وإن أضيفت كما إذا قلت : رجل غيرك فعل كذا وكذا ، وإذا كان متبوعها معرفة لم تكن إلا معرفة ، كما إذا قيل : المحسن غير المسيء محبوب معظم عند الناس ، والبر غير الفاجر مهيب ، والعادل غير الظالم مجاب الدعوة ، فهذا لا تكون فيه ( غير ) إلا معرفة ، ومن ادعى فيها التنكير هنا غلط ، وقال ما لا دليل عليه إذ لا إبهام فيه بحال فتأمله .

* *

( فإن قلت ) : عدم تعريفها بالإضافة له سبب آخر ، وهى : أنها بمعنى مغاير اسم فاعل من غاير كمثل بمعنى مماثل ، وشبه بمعنى مشابه ، وأسماء الفاعلين لا تعرف بالإضافة ، وكذا ما ناب عنها ، قلت : اسم الفاعل إنما لا يتعرف بالإضافة إذا أضيف إلى معموله ؛ لأن الإضافة فى تقدير الانفصال ، نحو : هذا ضارب زيد غدًا ، وليست غير بعاملة فيما بعدها عمل اسم الفاعل فى المفعول ، حتى يقال : الإضافة فى تقدير الانفصال ، بل إضافتها إضافة محضة كإضافة غيرها من النكرات ؛ ألا ترى أن قولك : غيرك بمنزلة قولك سواك ولا فرق بينهما ، والله أعلم .

* *

## ● الحادية عشرة : فائدة إخراج « صراط » مخرج البدل

( وأما المسألة الحادية عشرة ) وهى : ما فائدة إخراج الكلام بى قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ مخرج البدل ، مع أن الأول فى نية الطرح ؟

( فالجواب ) : أن قولهم الأول فى البدل فى نية الطرح كلام لا يصح أن يؤخذ على إطلاقه ؛ بل البدل نوعان :

نوع يكون الأول فيه فى نية الطرح ، وهو بدل البعض من الكل ، وبدل الاشتمال ؛ لأن المقصود هو الثانى لا الأول وقد تقدم .

ونوع لا ينوى فيه طرح الأول وهو بدل الكل من الكل ، بل يكون الثانى بمنزلة التذكير والتوكيد وتقوية النسبة مع ما تعطيه النسبة الإسنادية إليه من الفائدة المتجددة الزائدة على الأول ، فيكون فائدة البدل التوكيد والإشعار بحصول وصف المبدل للمبدل منه : فإنه لما قال سبحانه : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فكأن الذهن طلب معرفة ما إذا كان هذا الصراط مختصًا بنا أم سلكه غيرنا ممن هداه الله ، فقال : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وهذا كما إذا دللت رجلاً على طريق لا يعرفها وأردت توكيد الدلالة وتحريضه على لزومها وأن لا يفارقها ، فأنت تقول : هذه الطريق الموصلة إلى مقصودك ، ثم تزيد ذلك عنه توكيدًا وتقوية فتقول : وهى الطريق التى سلكها الناس والمسافرون وأهل النجاة ، أفلا ترى كيف أفاد وصفك لها بأنها طريق السالكين الناجين قدرًا زائدًا على وصفك لها بأنها طريق موصلة وقريبة سهلة مستقيمة ؟ فإن النفوس مجبولة على التأسى والمتابعة ، فإذا ذكر لها من تتأسى به فى سلوكها أنست واقتحمتها فتأمله .

* *

## ● الثانية عشرة : تفسير المغضوب عليهم والضالين :

( وأما المسألة الثانية عشرة ) ، وهى : ما وجه تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى مع تلازم وصفى الغضب والضلال ؟

( فالجواب ) أن يقال : هذا ليس بتخصيص يقتضى نفى كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى ، فإن كل مغضوب عليه ضال وكل ضال مغضوب عليه . لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفها وألحقها بها والصقه بها . وأن ذلك

هو الوصف الغالب عليهما ، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب فى القرآن ، والنصارى بالضلال : فهو تفسير للآية بالصفة التى وصفهم بها فى ذلك الموضع .

أما اليهود : فقال تعالى فى حقهم : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوا به أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهَ بَغْيًا أن يُنزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِه عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه ، فَبَاؤا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١) .

وفى تكرار هذا الغضب هنا أقول :

أحدها : أنه غضب متكرر فى مقابلة تكرر كفرهم برسول الله ﷺ والبغى عليه ومحاربته ؛ فاستحقوا بكفرهم غضبًا وبالبغى والحرب والصد عنه غضبًا آخر . ونظيره قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ (٢) ، فالعذاب الأول بكفرهم ، والعذاب الذى زادهم إياه بصدهم الناس عن سبيله .

القول الثانى : أن الغضب الأول بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء ، والغضب الثانى بكفرهم بالمسيح .

والقول الثالث : أن الغضب الأول بكفرهم بالمسيح والغضب الثانى بكفرهم بمحمد ﷺ .

* *

والصحيح فى الآية : أن التكرار هنا ليس المراد به التثنية التى تشفع الواحد ، بل المراد غضب بعد غضب بحسب تكرر كفرهم ، وإفسادهم ، وقتلهم الأنبياء ، وكفرهم بالمسيح وبمحمد ﷺ ، ومعاداتهم لرسل الله إلى غير ذلك من الأعمال التى كل عمل منها يقتضى . غضبًا على حدته . وهذا كما فى

---

(١) البقرة : ٩٠ (٢) النحل : ٨٨

قوله تعالى : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ (١) ، أى : كرة بعد كرة لا مرتين فقط ، وقصد التعدد فى قوله تعالى : ﴿ فَبَاؤُا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ (٢) ، أظهر . ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعى غضبًا ، وتكذيبهم الأنبياء يستدعى غضبًا آخر ، وقتلهم إياهم يستدعى غضبًا آخر ، وتكذيبهم المسيح وطلبهم قتله ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعى غضبًا . وتكذيبهم النبى ﷺ يستدعى غضبًا ، ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضى غضبًا . وصدهم من أراد الدخول فى دينه عنه يقتضى غضبًا ، فهم الأمة الغضبية أعاذنا الله من غضبه ، فهى الأمة التى باءت بالغضب المضاعف المتكرر ، وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى .

وقال تعالى فى شأنهم : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ ، مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ (٣) ، فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسخ وهو أشد ما يكون من الغضب . وقال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٤) .

وأما وصف النصارى بالضلال ففى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَد ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٥) فهذا خطاب للنصارى ؛ لأنه فى سياق خطابه معهم بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ

---

(١) الملك : ٤
(٢) البقرة : ٩٠
(٣) المائدة : ٦٠
(٤) المائدة : ٧٨ - ٨٠
(٥) المائدة : ٧٧

مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ...﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (١) فوصفهم بأنهم قد ضلُّوا أولاً ، ثم أضلوا كثيرًا وهم أتباعهم ، فهذا قبل مبعث النبى ﷺ حيث ضلوا فى أمر المسيح وأضلوا أتباعهم . فلما بعث النبى ﷺ أزدادوا ضلالاً آخر بتكذيبهم له وكفرهم به فتضاعف الضلال فى حقهم .

هذا قول طائفة منهم **الزمخشرى وغيره ، وهو ضعيف** ؛ فإن هذا كله وصف لأسلافهم الذين هم لهم تبع : فوصفهم بثلاث صفات :

**أحدها** : أنهم قد ضلوا من قبلهم .

**والثانى** : أنهم أضلوا أتباعهم .

**والثالث** : أنهم ضلوا عن سواء السبيل ؛ فهذه صفات لأسلافهم الذين نهى هؤلاء عن اتباع أهوائهم فلا يصح أن يكون وصفًا للموجودين فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم هم المنهيون أنفسهم لا المنهى عنهم فتأمله . وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال فى النصارى ضلالاً بعد ضلال لفرط جهلهم بالحق ، وهى نظير الآية التى تقدمت فى تكرار الغضب فى حق اليهود ، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود .

**ووجه تكرار هذا الضلال** : أن الضلال قد أخطأ نفس مقصوده فيكون ضالاً فيه فيقصد مالا ينبغى أن يقصده ، ويعبد من لا ينبغى أن يعبده ، وقد يصيب مقصودًا حقًا لكن يضل فى طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه ، فالأول ضلال فى الغاية والثانى ضلال فى الوسيلة،ثم إذا دعى غيره إلى ذلك فقد أضله .

وأسلاف النصارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة ، فضلوا عن مقصودهم حيث لم يصيبوه وزعموا أن إلههم بشر : يأكل ويشرب ويبكى ، وأنه قتل وصلب وصفع ، فهذا ضلال فى نفس المقصود حيث لم يظفروا به وضلوا عن السبيل الموصلة إليه فلا اهتدوا إلى المطلوب ولا إلى الطريق الموصل إليه ،

---

(١) المائدة : ٧٢ - ٧٧

ودعوا أتباعهم إلى ذلك ؛ فضلوا عن الحق وعن طريقه ، وأضلوا كثيرًا ؛ فكانوا أدخل فى الضلال من اليهود فوصفوا بأخص الوصفين .

والذى يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد ، وإيثار ما كان لهم على قومهم من السحت والرياسة ، فخافوا أن يذهب بالإسلام فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق ؛ فإنهم كانوا يعرفون أن محمدًا رسول الله كما يعرفون أبناءهم ، ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة من الكبر والحسد ، وإيثار السحت والبغى ، وقتل الانبياء .

ووبخ النصارى بالضلال والجهل الذى هو عدم العلم بالحق : فالشقاء ، والكفر ، ينشأ من عدم معرفة الحق تارة ، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى ، يتركب منها :

فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به وإيثار غيره عليه بعد معرفته فلم يكن ضلالاً محضًا .

وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه أشبهوا الأمة الغضبية ، وبقوا مغضوبًا عليهم ضالين .

ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره ، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق . والبغى يمنعه من إرادته . . كان العبد أحوج شىء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصر ط المستقيم تعريفًا وبيانًا وإرشادًا وإلهامًا وتوفيقًا وإعانة ؛ فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريدًا له قاصدًا لأتباعه ، فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم ، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال .

وكان السلف يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ، وهذا كما قالوا : فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه . وحسد من آتاه الله من فضله وطلب قتله ،

وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ، ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم .. إلى غير ذلك من الأخلاق التى ذم بها اليهود من الكفر . واللىّ والكتمان والتحريف والتحيل على المحارم ، وتلبيس الحق بالباطل .. فهذا شبهه باليهود ظاهر . وأما من فسد من العبّاد ، فعبد الله بمقتضى هواه لا بما بعث به رسوله ﷺ وغلا فى الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية ، وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد فشبهه بالنصارى ظاهر .

فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد ومن تصوّر الشبهين والوصفين ، وعلم أحوال الخلق علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء الذى ليس للعبد دعاء أنفع منه ولا أوجب منه عليه ، وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس ؛ لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته ، وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد . فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين .. إنه قريب مجيب .

## ● الثالثة عشرة : لماذا قدم المغضوب عليهم ؟

وأما المسألة الثالثة عشرة ، وهى : تقديم المغضوب عليهم على الضالين فلوجوه عديدة . **أحدها** : أنهم متقدمون عليهم بالزمان .

**الثانى** : أنهم كانوا هم الذين يلون النبى ﷺ من أهل الكتابين ، فإنهم كانوا جيرانه فى المدينة . والنصارى كانت ديارهم نائية عنه ؛ ولهذا تجد خطاب اليهود والكلام معهم فى القرآن أكثر من خطاب النصارى كما فى سورة البقرة والمائدة وآل عمران ، وغيرهما من السور .

**الثالث** : أن اليهود أغلظ كفرًا من النصارى ، ولهذا كان الغضب أخص بهم واللعنة والعقوبة : فإن كفرهم عن عناد وبغى كما تقدم ، فالتحذير من سبيلهم والبعد منها أحق وأهم بالتقديم ، وليس عقوبة من جهل كعقوبة من علم وعاند .

**الرابع** : وهو أحسنها : أنه تقدم ذكر المنعم عليهم،والغضب ضد الإنعام ، والسورة هى السبع المثانى التى يذكر فيها الشىء ومقابله ، فذكر المغضوب عليهم مع المنعم عليهم فيه من الازدواج والمقابلة ما ليس فى تقديم الضالين ، فقولك : الناس منعم عليه ومغضوب عليه ، فكن من المنعم عليهم أحسن من قولك منعم عليه وضال .

* *

● **الثالثة عشرة والرابعة عشرة** : اسم المفعول فى الغضب واسم الفاعل فى الضلال ، لماذا ؟ :

( وأما المسألة الرابعة عشرة ) وهى أنه أتى فى أهل الغضب باسم المفعول وفى الضالين باسم الفاعل فجوابهما ظاهر :

فإن أهل الغضب من غضب الله عليهم وأصابهم غضبه ، فهم مغضوب عليهم ، وأما أهل الضلال فإنهم هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه ، ولهذا استحقوا العقوبة عليه ، ولا يليق أن يقال ولا المضلين مبنيًا للمفعول ؛ لما فى رائحته من إقامة عذرهم ، وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم ، بل فُعِل فيهم .

ولا حجة فى هذا للقدرية ؛ فإنا نقول : إنهم هم الذين ضلوا وإن كان الله أضلهم ، بل فيه رد على الجبرية الذين لاينسبون إلى العبد فعلاً إلا على جهة المجاز لا الحقيقة؛فتضمنت الآية الرد عليهم كما تضمن قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الرد على القدرية ، ففى الآية إبطال قول الطائفتين ، والشهادة لأهل الحق : أنهم هم المصيبون ، وهم المثبتون للقدر توحيدًا وخلقًا والقدرة لإضافة أفعال العباد إليهم عملاً وكسبًا ، وهو متعلق الأمر والعمل . كما أن الأول متعلق الخلق والقدرة ؛ فاقتضت الآية إثبات الشرع والقدر والمعاد والنبوة ، فإن النعمة والغضب هو ثوابه وعقابه ، فالمنعم عليهم رسله وأتباعهم ليس إلا،وهدى أتباعهم إنما يكون على أيديهم ، فاقتضت إثبات النبوة بأقرب

طريق وأبينها وأدلها على عموم الحجة وشدة الضرورة إليها ، وأنه لا سبيل للعبد أن يكون من المنعم عليهم إلا بهداية الله له ، ولا تنال هذه الهداية إلا على أيدى الرسل ، وأن هذه الهداية لها ثمرة ، وهى النعمة التامة المطلقة فى دار النعيم ، ولخلافها ثمرة ، وهى الغضب المقتضى للشقاء الأبدى .

فتأمل كيف اشتملت هذه الآية مع وجازتها واختصارها على أهم مطالب الدين وأجلها ، والله الهادى إلى سواء السبيل ، وهو أعلم .

* * *

● **الخامسة عشرة والسادسة عشرة : زيادة « لا » بين المتعاطفين :**

( **وأما المسألة** ) **الخامسة عشرة** : وهى : ما فائدة زيادة لا بين المعطوف والمعطوف عليه ؟ ففى ذلك أربع فوائد :

**أحدها** : أن ذكرها تأكيد للنفى الذى تضمنه غير،فلولا ما فيها من معنى النفى لما عطف عليها بلا مع الواو ، فهو فى قوة ( لا المغضوب عليهم ولا الضالين ) أو غير المغضوب عليهم وغير الضالين .

**الفائدة الثانية** : أن المراد المغايرة الواقعة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده ؛ فلو لم يذكر « لا » وقيل : غير المغضوب عليهم والضالين .. أو هم أن المراد : ما غاير المجموع المركب من النوعين لا ما غاير كل نوع بمفرده ، فإذا قيل : ولا الضالين كان صريحًا فى أن المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء .

وبيان ذلك : أنك إذا قلت : ما قام زيد وعمرو ، فإنما نفيت القيام عنهما ، ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل واحد منهما بمفرده .

**الفائدة الثالثة** : رفع توهم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم ، وأنهما صنف واحد وصفوا بالغضب والضلال ، ودخل العطف بينهما كما يدخل فى عطف الصفات بعضها على بعض ، نحو قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (١)

---

(١) المؤمنون : ١ - ٣

إلى آخرها فإن هذه صفات للمؤمنين ومثل قوله : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى* الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [1] ونظائره . . . فلما دخلت « لا » علم أنهما صنفان متغايران مقصودان بالذكر .

وكانت « لا » أولى بهذا المعنى من غير لوجوه :

أحدها : أنها أقل حروفًا .

الثانى : التفادى من تكرار اللفظ .

الثالث : الثقل الحاصل بالنطق بغير مرتين من غير فصل إلا بكلمة مفردة ولا ريب أنه ثقيل على اللسان .

الرابع : أن(لا)إنما يعطف بها بعد النفى ، فالإتيان بها مؤذن بنفى الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم ، كما نفى عنهم الضلال ( وغير ) وإن أفهمت هذا فلا أدخل فى النفى منها .

وقد عرف بهذا جواب المسألة السادسة عشرة ، وهى : أن ( لا ) إنما يعطف بها فى النفى .

* *

● **السابعة عشرة والثامنة عشرة : معنى الهداية وأنواعها :**

وأما المسألة السابعة عشرة ، وهى : أن الهداية هنا من أى أنواع الهدايات [2] . . فاعلم أن أنواع الهداية أربعة :

أحدها : الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة ، فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [3] أى أعطى كل شىء صورته التى لا يشتبه فيها بغيره ، وأعطى كل عضو شكله وهيأته ، وأعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال ، وهذه هداية

---

(١) الأعلى : ١ - ٣

(٢) انتفع ونفع بهذا البيان بعض الدعاة إلى الله تعالى فأفادوا الحق والصواب فى معنى الآية .

(٣) طه : ٥٠

الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، وهداية الجماد المسخر لما خلق له فله هداية تليق به كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به ، وإن اختلفت أنواعها وصورها ، وكذلك كل عضو له هداية تليق به : فهدى الرجلين للمشى ، واليدين لبطش والعمل ، واللسان للكلام ، والأذن للاستماع ، والعين لكشف المرئيات ، وكل عضو لما خلق له ، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل ، وتربية الولد ، وهدى الولد إلى التقام الثدى عند رضعه وطلبه ، ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين ، وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومن الأبنية ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصى عليها ، ثم تأوى إلى بيوتها وهداها إلى طاعة يعسوبها وأتباعه والائتمام به أين توجه بها ، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة فى العالم شهد له بأنه الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم .

* *

وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة : بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة ، فإن من لم يهمل هذه الحيوانات سدًى ولم يتركها معطلة ، بل هداها إلى هذه الهداية التى تعجز عقول العقلاء عنها ، كيف يليق به أن يترك النوع الإنسانى الذى هو خلاصة الوجود الذى كرمه وفضله على كثير من خلقه مهملاً وسدى معطلاً لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته ، بل يتركه معطلاً لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه ؟ وهل هذا إلامناف لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلاله . ولهذا أنكر ذلك على من زعمه ونزه نفسه عنه ، وبين أنه يستحيل نسبة ذلك إليه وأنه يتعالى عنه ، فقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾[1] فنزه نفسه عن هذا الحسبان ، فدل

---

(١) المؤمنون : ١١٥

على أنه مستقر بطلانه فى الفطر السليمة والعقول المستقيمة ، وهذا أحد ما يدل على **إثبات المعاد** بالعقل ، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع كما هو أصح الطريقين فى ذلك .

ومن فهم هذا . . فهم سر اقتران قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (١) ، بقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، وكيف جاء ذلك فى معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة ، وأن من لم يهمل أمر كل دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه بل جعلها أممًا وهداها إلى غاياتها ، ومصالحها ، كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم ، فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها .

* *

**النوع الثانى هداية البيان والدلالة والتعريف** لنجدى الخير والشر ، وطريقى النجاة والهلاك ، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام ؛ فإنها سبب وشرط لا موجب . ولهذا ينبغى الهدى معها كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (٣) ، أى بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا . ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

* *

**النوع الثالث : هداية التوفيق والإلهام** وهى الهداية المستلزمة للاهتداء ، فلا يتخلف عنها . وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٥) وفى قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ ﴾ (٦) وفى قوله النبى ﷺ : « من يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له » ، وفى قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (٧) .

---

(١) الأنعام : ٣٨ (٢) الأنعام : ٣٧ (٣) فصلت : ١٧
(٤) الشورى : ٥٢ (٥) فاطر : ٨ (٦) النحل : ٣٧
(٧) القصص : ٥٦

فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

الرابع : غاية هذه الهداية ، وهى : الهداية إلى الجنة والنار ، إذ سيق أهلهما إليهما ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ، تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (٢) ، وقال أهل الجنة فيها . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا ﴾ (٣) . وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ (٤) .

إذا عرف هذا فالهداية المسئولة فى قوله : الصراط المستقيم إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة ، فهى طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام .

( فإن قيل ) كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له ، وكذلك الإلهام والتوفيق ؟ قيل : هذه هى المسألة الثامنة عشرة ، وقد أجاب عنها من أجاب : بأن المراد التثبيت ودوام الهداية ولقد أجاب وما أجاب وذكر فرعًا لا قوام له بدون أصله ، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها .

ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به وأعظم من ذلك بحول الله .

فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور ، وهو محتاج إليها لا غنى له عنها .

الأمر الأول : معرفته فى جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوبًا للرب تعالى مرضيًا له فيؤثره ، وكونه مغضوبًا له مسخوطًا عليه فيجتنبه ، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شىء نقص من الهداية التامة بحسبه .

---

(١) الشورى : ٥٢ (٢) يونس : ٩

(٣) الأعراف : ٤٣ (٤) الصافات : ٢٢ ، ٢٣

**الأمر الثانى** : أن يكون مريد الجميع ما يحب الله منه أن يفعله عازمًا عليه ، ومريدًا لترك جميع ما نهى الله عازمًا على تركه بعد خطوره بالبال مفصلاً وعازمًا على تركه من حيث الجملة مجملاً ، فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة .

**الأمر الثالث** : أن يكون قائمًا به فعلاً وتركًا ، فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه .

فهذه **ثلاثة** هى أصول فى الهداية ، ويتبعها **ثلاثة** هى من تمامها وكمالها :

**أحدها أمور هُدِىَ إليها** جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها ، فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها .

**الثانى أمور هُدِىَ إليها** من وجه دون وجه ، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها .

**الثالث الأمور التى هُدِىَ إليها** تفصيلاً من جميع وجوهها ، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها ، فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه .

**ويتعلق بالماضى أمر سابع ، وهو** : أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة ، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها ، وتبديلها بغيرها ، وإذا كان كذلك فربما يقال : كيف يسأل الهداية ، وهى موجودة له ؟ ثم يجاب عن ذلك : **بأن** المراد التثبيت والدوام عليها إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل ، فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام ، فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه ، وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعلية فيه ، فالمسئول هو أصل الهداية على الدوام تعليمًا وتوفيقًا وخلقًا للإرادة فيه ، وإقدارًا له ، وخلقًا للفاعلية وتثبيتًا له على ذلك .

فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علمًا وعملاً والتثبيت عليها والدوام إلى الممات .

وسر ذلك : أن العبد مفتقر إلى الهداية فى كل نفس فى جميع ما يأتيه ويذره أصلاً وتفصيلاً وتثبيتًا ، ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام ، فليس له أنفع ولا هو إلى شىء أحوج من سؤال الهداية ، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم ، وأن يثبت قلوبنا على دينه [1] .

* *

## ● التاسعة عشرة : الضمير فى ( اهدنا ) :

( أما المسألة التاسعة عشرة ) ، وهى : الإتيان بالضمير فى قوله ( اهدنا الصراط ) ضمير جمع ، فقد قال بعض الناس فى جوابه : إن كل عضو من أعضاء العبد ، وكل حاسة ظاهرة ، وباطنة مفتقرة إلى هداية خاصة ، به فأتى بصيغة الجمع تنزيلاً لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه .

وعرضت هذا الجواب على شيخ الإسلام ابن تيمية ، قدس الله روحه فاستدركه واستضعفه جدًا ، وهو كما قال : فإن الإنسان اسم للجملة لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه ، والقائل إذا قال : اغفر لى وارحمنى واجبرنى وأصلحنى واهدنى . . سائل من الله ما يحصل لجملته ظاهره وباطنه فلا يحتاج أن يستشعر لكل عضو مسألة تخصه يفرد لها لفظة ، فالصواب ؛ أن يقال : هذا مطابق لقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، والإتيان بضمير الجمع فى الموضعين أحسن وأفخم ، فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى ، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته ، فأتى به بصيغة ضمير الجمع أى :

نحن معاشر عبيدك مُقرون لك بالعبودية ، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه : نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك ،

---

(١) يجب تأمل هذا الفصل بتأن ليتدبر العبد موقفه من مولاه ويكون على وعى وتدبر ولمزيد بيان سنلحق ملحقًا عن الهداية فى آخر الكتاب لإمام الدعاة أستاذنا الشيخ الشعراوى .

فيكون هذا أحسن وأعظم موقعًا عند الملك من أن يقول : أنا عبدك ومملوكك ، ولهذا لو قال : أنا وحدى مملوكك استدعى مقته ، فإذا قال : أنا وكل من فى البلد، مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم ؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدًا ، وأنا واحد منهم ، وكلنا مشتركون فى عبوديتك ، والاستعانة بك ، وطلب الهداية منك ، فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده ، وكثرة عبيده ، وكثرة سائليه الهداية ، ما لا يتضمنه لفظ الإفراد فتأمله .

وإذا تأملت أدعية القرآن رأيت عامتها على هذا النمط نحو : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) ، ونحو دعاء آخر البقرة ، وآخر آل عمران ، وأولها ، وهو أكثر أدعية القرآن .

* *

● **أخيرًا : ما معنى الصراط المستقيم ؟ :**

( وأما المسألة العشرون ) ، وهى : ما هو الصراط المستقيم ؟ فنذكر فيه قولاً وجيزًا :

فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته، وحقيقته شىء واحد ، وهو : طريق الله الذى نصبه لعباده على ألسن رسله ، وجعله موصلاً لعباده إليه ، ولا طريق لهم إليه سواه ، بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا ، وهو : إفراده بالعبودية ، وإفراد رسوله بالطاعة؛ فلا يشرك به أحدًا فى عبوديته ، ولا يشرك برسوله أحدًا فى طاعته ، فيجرد التوحيد ، ويجرد متابعة الرسول ، وهذا معنى قول بعض العارفين :

إن السعادة والفلاح كله مجموع فى شيئين :

صدق محبته وحسن معاملته ، وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله ،

---

(١) البقرة : ٢٠١

وأن محمدًا رسول الله : فأى شيء فسر به « الصراط » فهو داخل فى هذين الأصلين ونكتة ذلك ، وعقده ، أن تحبه بقلبك كله وترضيه بجهدك كله ، فلا يكون فى قلبك موضع إلا معمور بحبه ، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته . والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله ، والثانى يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ وهذا هو الهدى ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به ، فقل ما شئت من العبارات التى هذا أحسنها وقطب رحاها ، وهى معنى قول من قال : علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة . ومعنى قول من قال : متابعة رسول الله ظاهرًا وباطنًا علمًا وعملاً .

ومعنى قول من قال : الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة على أمره .

وأما من عدا هذا من الأقوال ، كقول من قال :

الصلوات الخمس ، وقول من قال : حب أبى بكر وعمر ، وقول من قال : هو أركان الإسلام الخمس ، التى بنى عليها . . فكل هذه لأقوال تمثيل وتنويع لا تفسير مطابق له ، بل هى جزء من أجزائه . . وحقيقته الجامعة ما تقدم ، والله أعلم .

* * *